

# تقصيات

للأستاذ أنور المعداوي

مبنية الفلسفة على العقول

الأهواني مرتين : الأولى حين أوهمته ( فلسفته ) أنه يستطيع أن يكون أدبياً يشارك في هذا الذي يشارك فيه الأدباء ، وناقداً يخوض في هذا الذي يخوض فيه النقاد ... والثانية حين ألهمته هذه الفلسفة أن لقاءنا في ساحة النياحة أسلم مغيبة له من لقاءنا على صفحات الرسالة ١ ولم يفكر الدكتور الأهواني طويلاً لأن منطق الفلسفة الأهوانية لا يعترف بمبدأ الإحجام عن أي أمر من الأمور ... ومن هنا قرر ( الفيلسوف ) أن يكون أدبياً رغم أنف النقاد ، وعلى الذين لا يعترفون بمكانته الأدبية أن يواجهوا النياحة العامة !

ولم يكن هناك مد من أن نواجه النياحة العامة ، أتدري لماذا ؟ لأننا لم نشر إلى « الفيلسوف الأديب » بأطراف البنان وإنما أشرنا إليه بأطراف اللسان ... ولعلك قد أدركت بفطنتك ما تحمل الإشارة الأخيرة من معان !!

وننتقل بك إلى مرحلة التحقيق أو مرحلة العقوبة والتطبيق ...

ولا تعجب إذا قلنا لك إننا قد رغبتنا إلى المحقق في أن يعملنا بعض الوقت ، ليكون للضحك الساخر أو للسخرية الضاحكة أوفى نصيب ! وكيف لا نضحك والدكتور الأهواني يدفنا إلى الضحك دفماً ويفرضه علينا فرضاً وكأننا يريد أن يشغلنا بقكاهاته عن حر الصيف ووطأة الصيف ؟ سها إن شئت فكاهة الفلاسفة أو فلسفة الفكاهة ... وقد تفلسف الفكاهة أحياناً فلا تعبأ بمنطق ولا تؤمن بقاعدة ولا تخضع لشيء من هذا الذي تخضع له العقول !

هذه الفكاهة المتفلسفة عمادها في شكوى الدكتور الأهواني أننا قد تهجمنا على مكانته العلمية وأستاذيته الجامعية ، وأنه لا نكافؤ بين الناقد والنقود ... فالناقد أنور المعداوي ليس دكتوراً حتى يحق له أن يتهجم على دكتور في الآداب ، وليس أستاذاً في الجامعة حتى يحل له أن يتناول على أستاذ في الجامعة ، وفي هذا الاعتداء المنوي ما يماق عليه القانون أو ما يجب أن يماق عليه أ تواضع عظيم . وحسبك دليلاً على هذا التواضع أن الدكتور الأهواني لم يشأ أن يتشدد مع النقاد ، ولو شاء لطلب إلى النياحة العامة أن تطبق القانون على كل ناقد يتعرض له . إذا ثبت أن هذا الناقد لم يحصل على جائزة نوبل في الآداب !

جناية الفلسفة على العقول أمر لم نكن نؤمن به حتى أثبت لنا الدكتور الأهواني أنه حقيقة لا تقبل الجدل ... إذا لم تصدق فاعلم أن هذا ( الفيلسوف ) قد آثر أن يشكونا إلى النياحة العامة بدلاً من أن يشكونا إلى روح طيب الذكر ربنيه ديكرت !

وجناية الفلسفة على العقول قد تحققت بالنسبة إلى الدكتور

تجازى البحيرة عن صنمها  
كقائد جيش لدى موكب  
نباركت يارب من مبدع  
وقصر تناسلت له روعة  
كخطاب قوم سما منطقاً  
به ما اشتهت وفوق المنى  
بخدمة قوم صباح الوجوه  
على أدب زان منهم حجى  
نألق فيه وداد مضى  
فمبنى تقسر برفه المسية  
إذا البرء جادك حوى الضنا  
كذا العمر جذب بغير الوفاء  
« فدلدر » تخنوع على « زورخ »  
« وزورخ » تزهر على « دلدر » (١)

محمد محمود مهول

(١) فندق « دلدر » يقع على ربوة تطلو مدينة زبورخ بمائتي متر وهو ترتفع « أي زبورخ » (ربمائة متر) — وبهنا الفندق قضيت الأيام التي تعقب العلاج عادة بجماء بلويير في فرنسا وكان قد مضى على وقت طويل لم أقل شعراً ، وكان هذا المكان موضع الإلهام

عصير الليمون ١

قلت : هذا صحيح مع الأسف .. وهى ظاهرة خطيرة تستحق العناية والملاج .. فان انصراف الناس عن غذاء العقل نكبة كبرى لأمة فى طريق التحضر ... وما قيمة التعليم فى أمة إذن، إذا كانت نتيجته تخريج زبائن المشارب لاللسكانب؟ إن أتى درس وأهم كسب للطلاب فى المدرسة، ليس فى تلك المعلومات المحددة لأنها ستنسى حتما بعد حين، ولكنهما فى غرس ملكة الطالمة التى ستلازمه فى كل حين ... لا خير ولا نفع فى أرقى المدارس والجامعات إذا خرج منها الطلاب يلمنون كتبهم ويختمون على رءوسهم ... بينما الطالب الذى ينشأ فيه حب المطالمة والاطلاع تنشأ فى نفس الوقت جامعة كبرى نفسه، تزوده بالمعارف التجدة طوال أيام حياته ... ذلك واجب المدرسة الأول : نعلمنا حب القراءة ... وعمرن عضلاتنا الفكرية على هضم أغذية العقل ... ثم تدفقتنا إلى الحياة زردت ثمرات الذهن ...

قالت العصا : حقا .. إن الإنسان يولد زبونا بالفطرة لمصير الليمون ... ولكنه لا بد أن يمد إعدادا ليصير زبونا لمصير الذهن !

هذا هو الحوار البديع الذى دار منذ أيام على صفحات « أخبار اليوم » بين صدقتنا الفنان الكبير الأستاذ توفيق الحكيم وبين عصا ... وأزمة القراء التى شغلت قلم الصديق فأجرت مداده بهذه الكلمات الطافحة بالمرارة والقياضة بالأسف، مشكلة عرضنا لها بالأمتس على صفحات الرسالة معددين أسبابها الأصلية ودوافعها الطبيعية، معبرين عن مظاهر الأسف والمرارة كما استشرها الأستاذ الحكيم ١

ولا نذكر أننا التقينا مرة - توفيق الحكيم وأنا - إلا ومرجنا على هذه المشكلة وخصمناها بأكثر ما ينقضى بيننا من وقت وأغلب ما يدور بيننا من حديث .. إنها مشكلة من مشكلات الساعة بلا جدال : جيل ينصرف عن القراءة الفريدة إلى فنون من اللهو والبيت لا تنفع ولا تفيد، ويضيق بمصاراة الفكر التى تعطى ظمأ العقل وترطب جفاف القلب ليقبل على كل ما من شأنه أن يذبل نضارة العقول ويطلق منافذ القلوب ...

تواضع عظيم لا شك فيه ... ومنطق عظيم لا شك فيه أيضا ... وآية المظمة فى هذا المنطق أن كاتبها له مكانته كالأستاذ المقاد لا يجوز له مثلا أن يتقدم صاحب الفلسفة الأهوائية، لأن شرط التكافؤ بين الناقد والنقود يراعك الله .. غير موجود .. ولا يستطيع الأستاذ المقاد أن يدعى بأنه دكتور فى الأدب أو دكتور فى الفلسفة، أو يزعم بأنه أستاذ فى جامعة فؤاد أو جامعة فاروق ... هكذا تريد لنا الفلسفة الأهوائية

دكتور فى الفلسفة وأستاذ فى الجامعة ... هذا حق لا يمكننا أن نجادل فيه، ولكن حق آخر لا يحتمل المناقشة، وهو أن « الدكتوراه » التى يحملها الدكتور الأهوائى كانت أول دكتوراه فيما نعلم يحصل عليها صاحبها مجردة من مراتب الامتياز ودرجات التفوق ... رى هل يستطيع أن يجادلنا فى هذا الواقع الذى شهدناه بأعيننا يوم أن توقفت رسالته، وقد كانت عن « التعليم فى رأى العباسى » ١٢

أعلا - الجان أنه لا يستطيع .. ومع ذلك فهو دكتور يزهى علينا بالدكتوراه، وأستاذ فى الجامعة يفخر علينا بالأستاذية، ثم لا يجد ضيرا من أن يجهر بدمم التكافؤ بين الناقد والنقود ... أو بين الممدارى والأهوائى ١١

إن الحصول على الدكتوراه فى مصر ليس أمرا عسير المنال كما تتوهم الفكاهة المتفلنفة، وبخاصة إذا روعى فى الحصول عليها ذلك « التواضع » الذى يحرص على أن تكون الألقاب العلمية مجردة من تفوق الراتب والدرجات ...

هذه كلمة زجو أن يقرأها الدكتور الأهوائى بعناية ... ونحن فى انتظار بلاغ آخر يتقدم به إلى النيابة العامة ١

أزمة القراء وعصا الأستاذ الحكيم

قالت العصا : هل رأيت هذه المكتبة المامرة بالكتب فى أشهر ميادين القاهرة، كيف تمحوت أخيرا إلى حانوت للمطبات؟ إن صاحبها هو صاحبها لم يتغير .. ولكنه قلب نفسه بكل بساطة من « كتنى » إلى « شربلى » .. وعندما سئل فى ذلك قال : الناس لا يريدون اليوم عصير الذهن .. إنهم يريدون

هذا الجليل ماذا حدث له ، وماذا فعل من أجله ، وكيف نهديه إلى مسالم الطريق ؟ إننا نستطيع أن ننفذ إلى مكائن الداء في جسم هذا الجليل المريض ، ونستطيع أن نضع أيدينا على مصدره ونستطيع بمد هذا كله أن نصف الملاج الناجع والدواء الفيد .. نستطيع أن نفعل هذا الذي قلناه ، ولكن المشكلة التي تواجهنا ويتحول معها الأمل إلى يأس هي طبيعة المريض نفسه ، طبيعته العقلية والنفسية ، هذه الطبيعة التي لا تؤمن بقيمة الدواء ولا يجردى العلاج ولا ينصائح الطبيب !!

وأين هو الطبيب المنتظر الذي يحمل الدواء إلى المريض في يد «الكراياج» في أخرى ، حين يكون الكراياج هو السبيل الوحيد إلى الانتعاش ؟! أن هو ليخرج المريض العنيد عصير الذهن بدلا من عصير الليمون ، فإذا امتنم من مخرج الدواء ألهب ظهره بسوط الجلاد ؟! نحن محتاجون إلى عهد الكراياج ليقرأ الناس .. ولا شيء غير الكراياج يستطيع أن يقنعهم بأن الجذخير من الهزل ، وأن الثقافة أفضل من الجهل ، وأن النور أجمل من الظلام !

كل هذه الخواطر التي نسجها في هذا المكان حول أزمة القراء ، كنا ننهي إليها وينتهي الأستاذ الحكيم كلما جمع بيننا لغاه .. ويقول الأستاذ الصديق ذات يوم وكأنا اهتدى إلى علاج : ألا يكون ارتفاع أثمان الكتب سببا من الأسباب الجوهرية في انصراف الناس عن القراءة ؟ وتقول له رداً على ملاحظته المغلطة بإطار من الإيمان : لا نظن .. فالقارئ الذي يريد أن يبسط عقله لا يقبض يده ثم إن الكتب يا صديق أيبست هي الشيء الوحيد الذي ارتفع ثمنه في هذه الأيام ، كل شيء قد ارتفع ثمنه وغلا سعره ، ومع ذلك فما أكثر ما يقبل الناس ومنهم المتعلمون على الشراء ينفقون الجنيومات على التمتع الزائلة ويضنون بالقروش على التمتع الباقية .. ينفقون على متعة الجسم والنظر ويضنون على متعة الذهن والروح .. مائة قرش يدفعها الشاب الجاسمي ثمنا لرباط رقبة ، وعشرون قرشاً يستكثرها ثمنا لأثر من آثار الأدب والفن ، ومن هنا عمرت محال «الكرايفات» وافقرت من روادها المكتبات !

ويبرز توفيق الحكيم رأسه هزات المؤمن بما نقول ، ولكنه يريد أن يجعلها تجربة ليحكم في ضوء الوقائع المسادية لا الآراء النظرية .. ولم تخض أساييم حتى أصدر الصديق مجموعتين من

قصصه حدد لكل منهما ثمنا قدره عشرة قروش بدلا من خمسة وعشرين وعلى الرغم من أن توفيق الحكيم هو أكثر كتاب الشيوخ إقبالا من القراء ، فقد كانت نتيجة اليوم هي نتيجة الأمس .. عشاق قننه وحدهم هم الذين أقبلوا على شراء قصصه الجديدة ، نمنى أن القروش العشرة لم يجتذب قارئاً جديداً لتضمه إلى قائمة قرائه المعجبين ، والسبب .. هو أن الذي يهوى القراءة ويمشق الاطلاع لا يهمه أن يكون ثمن الكتاب عشرة قروش أو مائة أما أوائك اللاهون والتافهون من رواد المراقص والمقاهي والحانات ، فلن يقرأوا ولو حددنا أثمان الكتب بالمئات !!

هذه حقيقة آمن بها توفيق الحكيم بمد التجربة كل الإيمان .. ويقول لنا بمد أن عاد من رحلته الأخيرة إلى باريس - ما أعجب القوم هناك ! إن حياتهم حياة .. وحسبك أن العين قلما تقع على فتى أو فتاة من غير كتاب .. الكتاب دائماً يطالعك في أيدي الناس حينما ذهبت : في القهوة ، والبيت ، والشارع ، والترسو ، وحلبة السباق .. لا يكاد يصرفهم عنه لهو أو متاع ، في بلد كل ما فيه لهو ومتاع .. صدقتى ما أحسست بمدى الفارق بين الموت والحياة إلا بعد أن رجعت إلى مصر ، وقارنت بين حال القراء هنا وحالهم هناك !

ولم نكن محتاجين إلى أن يقص علينا الأستاذ الصديق هذا الذي رآه ، لأن بعض الحقائق نلمس بالمثل إن عز لمسها على الأنظار والأسماع .. ومن هذه الحقائق المدوسة بالعقل أن القارئ الفرنسي يهتم الكتب إنهما ما ليضيف إلى عمره أعماراً أخرى من طريق القراءة والاطلاع ، ولولا هذا لما كانت الطبعة التي بين أيدينا من أحد كتب سارتر هي الطبعة الثالثة والتسعين .. ولا تقس أن الطبعة الواحدة تقدر في حساب الناشرين بمدد من الألوف !

هذا في فرنسا ، أما في مصر ... فقد حدثنا الأستاذ الحكيم عن قصة صاحب المكتبة العامرة بالكتب في أشهر ميادين القاهرة وكيف تجوزت إلى حانوت المرطبات ... وعندما سئل الرجل في ذلك أجاب : الفاس لا يريدون اليوم عصير الذهن ... لهم يريدون عصير الليمون ... وباله من جواب ذلك الذي يعيد إلى الأذهان أسطورة نهر الجنون !